الذي يرعى الغنم ويهتم بالحقل ، على الغلام المولع بالقراءة والكتابة، ومن ناحية اخرى يتباهى بطول باع اليهود في العلوم والفنون والآداب . ثم لنتذكر حديثه مع هيرتزل ، عندما أبدى نفوره من طموح اليهود واندفاعهم الى الامام . الم يكن هو نفسه أكبر نموذج للطموح والاندفاع ؟! انه لم يكتف بثرائه الفاحش ، وبالنفوذ العظيم الذي ناله بواسطة هذا الثراء ، بل ظل طول حياته يسعى وراء الاوسمة والالقاب . وليس لنفسه فقط ، وانما حتى لاولاده غير الشرعيين ، ولحفيدته غير الشرعية ! وحتى الدولة العثمانية التي كان يجاهر باحتقارها ، هذه الدولة اشترى منها وساما رفيعا ! وهو عندما فكر في تزويج ابنه لوسين ، لم يقع اختياره الا على فتاة بريطانية ارستقراطية* (غير يهودية) ، فظل يلاحقها ليقنعها بأن تقبل بابنه زوجا لها بعد أن لوح أمامها بثروته الطائلة . الا أن هذه الفتاة رفضت العرض شاكرة ، وتزوجت بعد ذلك اسكويث الذي أصبح رئيسا لوزراء بريطانيا .

هنا اذن يكمن المفتاح في شخصية هيرش ذات التناقضات الحادة . فبالرغم من الحياة الباذخة التي كان يعيشها ، كانت نوبات البخل فيه تثير عجب الناس . فانه مثلا كان ينزل في الفنادق الممتازة ، ولكنه لا يتناول وجبات الطعام فيها لانها غالية . وكان يتبضع في فيينا وليس في باريس لان العاصمة الاولى أرخص . وكان دائما يوبخ موظفيه بسبب المصروفات التي يتكبدوها بحكم العمل ، ويتهمهم باستغلاله . بل حتى عربات الاجرة ، لم يكن يستقلها الا بعد المساومة والمفاصلة . ويتذكر احد معارفه كيف وقف البارون مدة دقائق طويلة تحت المطر الشديد ، وهو يجادل سائق العربة حول الاجرة ، دون أن يأبه لتبلل ملابسه وتعرضه للاصابة بالرشح .

اذن كيف يمكن توفيق هذا البخل المضحك مع حياة البذخ التي كان يحياها ، ومع الملايين التي تبرع بها ؟

الجواب على ذلك هو أن البخل كان متأصلا في طبيعته ، أما البذخ فلم يكن الا الوسيلة التي التجأ اليها ليخفي مركب النقص في نفسه . ومركب النقص هذا كان وليد الرفض الذي واجهه في الاوساط التي تمنى من صميم قلبه أن ينتمي اليها . فبالرغم من كل ثرائه ونفوذه ، ظلت بعض الاوساط الارستقراطية التي طمع في الانتساب اليها ، ترفضه بازدراء . وقد حدث أن رفض ناد ارستقراطي في باريس ، طلب العضوية الذي تقدم به ، فثارت ثائرة البارون ، واشترى البناية التي يقع فيها النادي المذكور ليجليه عنها . ولعله كان مثل غاتسبي الكبير ، لا يقيم الحفلات الكبرى حبا بها ، وانما ليجتذب الى داره تلك الطبقة العليا التي افتتن بها .

ولعله أيضا مركب النقص نفسه هو الذي جعله يتردد في مساعدة هيرتزل . فان هيرتزل البسنوب**، الذي كان يشعر بالمرارة في قلبه لفشله كمؤلف ، ويحس بمكانته المتواضعة أمام البارون الشهير ، هيرتزل اختار أن يلعب دور النبي القائد ، وصاحب الرؤيا ، فارضا بذلك على هيرش أن يلعب دور رجل المادة الضعيف الخيال ، والقليل الطموح . وشتان بين صاحب الرؤيا ، وصاحب المادة ! ولم يكتف هيرتزل باتخاذ هذا الموقف المترفع ، بل انه طعن البارون في أعز شيء على قلبه . فقد انتقد مشروعاته

---

* Margot Asquith: My Autobiography (Penguin Books, London, 1936)

** ان الرواية المدونة الوحيدة لما قيل في مقابلة هيرتزل مع هيرش هي تلك التي ضمنها هيرتزل في مذكراته. ولذا علينا أن ندخل في اعتبارنا احتمال بعدها عن الصحة ، ولو ان هذا الاحتمال ضعيف ، وذلك لاتفاق أقوال كل من الرجلين مع شخصيته ونظرته الى الحياة ، مما يحمل على الظن بأن هيرتزل كان عموما أمينا في روايته .